«المقامات النصرانيّة» لابن ماري

المقامة الثالثة

حقّقها د. وجيد صبحي كتّابه ـ حلب ـ

إبن ماري هو يحيى بن سعيد بن ماري، المسيحيّ البَتْشريّ الطبيب (توفّي ١٢٢٥ م). إشتُهِرَ بمقاماته الستّين، التي نَهَجَ فيها نَهْجَ الحريريّ، وقيل إنّه تفوّق عليه فيها. وله إلى جانب هذه المقامات شعرٌ جيّد.

ويعود الاهتمام بهذه المقامات للأب أنستاس الكرمليّ، الذي نشر المقامة الأولى في مجلّة المشرق ٣ ـ ١٩٠٠ م ـ، ص ٥٩١ ـ ٥٩٨. وقد شاركه هذا الاهتمام الأستاذ نعمان أفندي الآلوسي، [كما هو مذكور في تقديم الكرمليّ للمخطوطة وعمله فيها (مجلّة المشرق ٣ ـ ١٩٠٠ ـ، ص ٥٩٢)] ومحمود شكري الآلوسي[١]. كما اهتمّ بهذه المقامات عبد الرزّاق الهاشميّ، الذي نشر مقامتَين منهما (في ثلاثين صفحة)، في مطبعة العرب، بغداد (١٣٣٨ هـ).

وممّن عمل على نشر هذه المقامات أيضًا محمّد بهجة الأثريّ، بحسب ما ورد في كتاب الرسائل المتبادلة بين أحمد تيمور والأب أنستاس الكرمليّ[٢]. ولكن، يبدو أنّ عمله بقي مخطوطًا، ولم يُنْشَر[٣].

(١) مجلّة لغة العرب، الجزء ٦ من السنة ٨ (١٩٣٠)، ص ٤٥٧.

(٢) صدرت في بغداد، ١٩٧٤، بتحقيق وتعليق: كوركيس عوّاد وميخائيل عوّاد وجليل العطيّة. أطلب ص ١٥٦ ـ ١٥٧ و١٦٤.

(٣) يذكر أحمد تيمور ضمن رسائله المؤرّخة في ١٥ أغسطس ١٩٢٣، أنّه رأى في المكتبة السلفيّة =

ولمؤلَّف ابن ماري أهمِّيَّته الكبيرة، لا لقيمته الأدبيَّة واللغويَّة والتاريخيَّة فحسب، بل ليكون صاحبه المسيحيّ الوحيد (في ذاك العصر) الذي كتب في هذا الجنس الأدبيّ[1].

هذا، والمخطوط الذي نعتمده، مكتوب بخطّ الأب أنستاس الكرمليّ، بقرينة المقدّمة والشروح على المقامة الأولى، وهي منشورة بنصّها في مجلّة المشرق كما ذكرناه سابقًا.

ويُلاحظ في هذا المقام أنّ الكرمليّ عمد إلى تشكيل هذا القسم من المقامات، على أمل العودة إليه لشرحه. لكنّه لم يشرح غير المقامة الأولى، على ما هو مُثبَت في المخطوط[2].

= قطعة من هذه المقامات، «وعليها تعليقات للسيّد محمّد بهجة الأثريّ، وقد أرسل بها السيّد نعمان الأعظميّ لتطبع، ولكن بعد استطلاع رأيي» (الرسائل المتبادلة، ص ١٥٦ – ١٥٧). كما يذكر في رسالة ثانية، تاريخها ١٩٢٣/١٠/٩، جهلَه بما فعله الأعظميّ في هذه المقامات، بعدما عزم على طبعها بالمطبعة السلفيّة (الرسائل المتبادلة، ١٦٤). ويؤكّد محقّقو هذه الرسائل عمل الأثريّ فيها، فقد نسخها بخطّه وعلّق عليها شروحًا وهيّأها للنشر (الرسائل المتبادلة، ١٥٧، الحاشية ١٧١).

(١) هذا ما يراه الإكليريكيّ يوسف نصرالله، ص ١٧٦ من كتابه: *Histoire du Mouvement littéraire dans l'Eglise Melchite*, Vol. III, Louvain - Paris, 1983.

(٢) لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّني في التحقيق لم أشر إلى أخطاء التشكيل في المخطوطة، ممّا قد يقع سهوًا، وإلى أنّني ذكرت قبل الأبيات الوزنَ العروضيّ الذي نُظِمَت عليه. ومن الرموز المعتمدة في التحقيق: م: المخطوطة؛ < > للإضافة من عندي؛ □ للكلام الذي أضافه الناسخ إلى المتن.

المقامة الثالثة

< وتُعرَف بالشعريَّة* >

حَكَى يَحْيَى بْنُ سَلاَّم قَالَ: كُنْتُ في سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَة، في دَارِ الإِمَارَةِ بالبَصْرَة، ذا رِوَايَةٍ ورَوِيٍّ، ورُواءٍ وَرِيٍّ[1]، أَمْرَقَ مِنْ زَخَمَةٍ[2]، وأَسْهَلَ مِنْ كلمةٍ مُرْخَمَةٍ[3]. أَطْرَبَ مِن نَشْوَان، وأَثْمَلَ مِنْ نَشْوَان[4]. فَعَايَنْتُ زِحَامًا قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الأَشْرَارِ والأَخْيَارِ، ونَقَلَةِ الأَخْبَارِ والأَحْبَارِ[5]. فَشَقَقْتُ بُهْرَةَ[6] الزِّحام، وَفَكَكْتُ حَلْقَةَ الالْتِحَام، حتَّى صِرْتُ أَعْلَقَ [مِن بَنَا]نِهم، وأَقْرَبَ إليهِمْ مِنْ جَنَانِهِم[7]. فَشَاهَدْتُ فَتًى يَطْرُدُ مَاءَ النَّعيم في وَجْنَتِهِ[8]، ويُرْغَبُ فيهِ لِسَلاَجَنَتِهِ[9]. ويَخْتَارُ القَانِتُ[10] في حُبِّهِ النَّارَ على جَنَّتِهِ. فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ

---

* كذا ذكرها فلوجل. ص ٣٥٤ من كتابه Flügel. *Die Arabischen. Persischen und Türkischen Handschriften der Kaiserlich - Königlichen Hofbibliothek zu Wien* المطبوع في فينا ١٨٦٥.

(١) الرُّوَاء: حُسْن المنظر. والرِّيّ: حُسْن الحال وكثرة النعمة.

(٢) مائع المِيعَة: رجيع، واضطمام: كثيف. والرُّخَمَة: أن يكون اللحم فاسدًا كريه الرائحة.

(٣) رَخَّمَ الكلام: لان وسَهُلَ. والترخيم في الأسماء حذف أواخرها لسهيل النُّطق ـ كقولك إذا ناديتَ مالكًا: يا مال.

(٤) نشوان: سكران.

(٥) الحَبْر: العالم العالم، وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه.

(٦) البُهْرة من الزمان والمكان: الوسط.

(٧) الجَنان: القلب. والبَنان: أطراف الأصابع. والكلام كناية عن القرب والعلوق.

(٨) إطَّرَدَ: جرى.

(٩) داجِن: داهِن وخاتل. (والمعنى: لأنه داجن أليف طيّب المعشر).

(١٠) قَنَتَ له: ذَلَّ وتَواضَع. والنُّسُوك: الإمساك عن الكلام في الصلاة. ويُقال للمُتَصَلِّي: قانِت. والقانت أيضًا: المُطيع.

ما يَسْتَنْزِلُ العُصَمَ[1]، ويَسْتَنْطِقُ البُكْمَ، وَيُرْقِصُ حَبَّ القُلُوبِ[2]، وَيَهُزُّ مَنْ لَيْسَ بِطَرُوب. ويُعْقِبُهُ ما يُسْتَدَرُّ بِهِ أَخْلافُ الشُّؤُونِ[3]، ويُذَكِّرُ مَحَارِفَ وَقَعاتِ المُنُونِ. فَأَوْرَدَ في أُخْرَيَاتِ كَلامِهِ، وَخِتَامِ رَقْمِ أَعْلامِهِ: طُوبَى لِمَنْ لا يَجْمَعُ في فُرْصَةِ عَيْشٍ يَنْتَهِزُها، ولا يَجْنَحُ عِنْدَ لَذَّةٍ يُنْجِزُها. ويَأْخُذُ مِنَ الدَّهْرِ خَلَسًا، ولا يَخْطُرُ بِبالِهِ أَسًى، ويَرْكَبُ جَوَادَ المَرَحِ، ويَجْرِي في حَلْبَةِ الفَرَحِ. وَيُجيلُ قِدَاحَ الأَفْراحِ، ولا يُرِيحُ الرَّاحَ من الرَّاحِ[4]. وأَنْشَدَ: (من الهزج)

إِذَا أُعْطِيتَ مِنْ دَهْرِكَ ... فِي الأَفْرَاحِ تَقْلِيدَا
وَوُلِّيتَ حِمَى الصَّفْوِ ... وَحَكَّمْتَ المَقَالِيدَا
فَلاَ تَغْفَلْ عَنِ ادْرَاكِ ... مَا تَرْجُوهُ تَوْدِيدَا
ولا تَلْبِثْ إِلَى غَيْرِ ... مَجَانِي لَذَّةٍ جِيدَا

فالثَّوَانِي قَدْ[5] أَسْعَفَ الزَّمَانُ بِلادَهُ واسْتَرَقَّ الجَذَلُ جِلادَهُ[6]. ولَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ لَبِسَ العَبَا، وَأَنَا أَعْرِضُ عَلَيْهِ الزَّادَ أَبَا[7]. يَظُنُّ أَنَّ جِيَازَةَ الرَّاحَةِ بِإِتْعابِ النُّفُوسِ، وَنَيْلَ الدَّرَجاتِ الرَّفِيعَةِ بِالتَّقَمُّصِ بِلِبَاسِ البُؤسِ. كَلاَّ، إِنَّمَا يَمْلِكُ حُرَى الخُلُودِ، مَنْ بُعَرَى لِنَمْطِ الجُودِ، ويَضْبِطُ زِمَامَ كُلِّ نَفِيسٍ، مَنْ يَنْعَمُ بِهِ المَجْلِسُ. ثُمَّ عَقَّبَ النَّزْلَ بِجِدٍّ، وبَرَضَ لَفْظَهُ بِتَجْدِيدٍ[8]، فقال الأَمِيرُ: مَنْ يُمِدَّ حَبْلَ المَجْدِ، فَلْيَشِطَّ أَشْكَالَ البَذْلِ، وَيُكْثِرُ الذَّبَّ[9]، ويُحَذِّرُ عِصْيَانَ

---

(١) العُصَم: من اعتصموا بالجبل. ومنه: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء.

(٢) حبة القلب: مهجته.

(٣) أخلاف: مفردها خِلْف: المحلب. والشؤون: الدموع. والشأن: العرق الذي تجري منه الدموع.

(٤) الراح الأولى: الأكف. الراح الثانية: الخمرة - أي لا يكف عن شربها.

(٥) م: وقد

(٦) م: أشراق. واسترق: ملك. والجذل: الفرح. والجلاد: الإبل الغزيرات اللبن، والمعروف أنها المسنة النشيطة.

(٧) العباء والعباءة: يكسر مفتوح من قديم يلبس فوق الثياب. وأبا: (كذا)، لعلها فعل (أبى) أي الأخباء (من لبس العبا) يرفضون العطاء والجود علي.

(٨) في م: كسة ثم أثبتت حروفها ومعناها. وأهل نجد يعرفون بعدوبة ألفاظهم. وبرض الثمار: حرج بأرضه.

(٩) ذب: دفع عنه ومنع وحامى.

الرَّبُّ. ولا يَغْتَرَّ بتجيلِهِ وكَثْرَةِ حِيلِهِ[1]؟ وَيَعْلَمْ أَنَّ الدُّوَلَ مُتَدَاوِلَةٌ، وَرَوَاسِيَ الجِبالِ زَائِلَةٌ، وأَنَّهُ سَيُلاقِي خُطُوبًا هائِلَةً، وَسُيُولَ مَهَالِكَ سائِلَةً. وَيُوقِفُ بَيْنَ مَسَائِلِهِ وسَائِلِهِ، ويعتاصُ[2] عَلَيْهِ نَهْجُ مَسَائِلِهِ؟ فالرَّابِحُ مَنْ فَلَحَتْ حُجَّتُهُ، وَأَنارَتْ في الحَيِّ مَحَجَّتُهُ. ثُمَّ يَسْأَل عَن حَمِيمِهِ[3] وَنَدِيمِهِ، وَحَدِيثِهِ وَقَدِيمِهِ. فَالْمُنَادَمَةُ مُتْعِبَةٌ لِلْفِكْرِ، وكادَّة لِلذِّكْرِ.

< فأجاب الفتى > :

تَاللهِ ما تَوَشَّحْتُ بِأَنْفالِهَا[4]، ولا تَوَشَّحْتُ لِمَقَالِها، وفي يدي دُرَّةٌ، [ولا يُنْدَى لي بِمِزْقَةِ دُرَّةٍ[5]]. ووِرائي[6] مَنْ لا يُعْذِرُ عنده مُتَعَذِّرٌ[7]. فلقد تَمَنَّيتُ أَنْ تُعَدَّ حليلتي في الأيامى[8]، ولا أُعَدَّ في زُمَرِ النَّدامى. فالنَّجا النَّجا، لم يَبْقَ فيها خيرٌ يُرْتَجى. وَأَنْشَدَ: (من الكامل)

وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الْمُنَادَمَةِ الَّتي ... ضَيَّعْتُ عُمْري حَافِظًا آدَابَهَا

جَدَعُوا عَوَارِبَهَا، وَخَاضَ مَعِينَها ... فَذَرَى التَّخَيُّرَ: وَقَطَّعُوا أَسْبَابَهَا[9]

فالشُّحُّ عَفَّى طُرْقَهَا، وَنَفَى الكَرَى ... عَنْ طَرْفِهَا بِأُهَيِّ، وَرَاثَ سِبَابَهَا[10]

---

(١) حال: جَوْلاً وجِيلانًا: طاف في المكان ودار.

(٢) م: يَغْتاضُ. واعتاص: إشتدَّ وامتنع الأمرُ عليه فلم يهتدِ إلى الصواب.

(٣) الحميم: الصديق أو القريب الذي تهتمّ بأمره.

(٤) أَنْفال: المفرد النَّفَل: الغنيمة والهِبَة.

(٥) المِزْقَة: القطعة من الثوب ونحوه. وفي م: مَذْقة بالذال. وهي اللبن الممزوج بالماء. والمعنى الأوّل أصحّ يستقيم مع السياق.

(٦) م: ووراي

(٧) أعدر: أبدى عذرًا. والهاء في (عنده) محذوفة في الأصل. والمعنى: لا يقبل عذرًا عن أمر صعب.

(٨) الأيامى. الأيِّم من فقدت زوجها (للمذكّر والمؤنّث).

(٩) جدع: قَطَعَ، حبس عنه الخير، والعوارب: العارية ـ الإعارة وما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك... وخاض الشرابَ: خلطه. والمَعين: الماء الجاري. والأسباب: الوُصَل والمودّات ـ وأسباب العيش: ما يُتَوَصَّلُ به إلى المعيشة.

(١٠) الشُّحّ: الكريم. عَفَّى: دَرَسَ ومَحَا. لُهَى: العطايا ـ وفي م: لُهًا، وهي جمع لُهاة: أي النعمة المشرفة على الحلق. راث السَّهْمَ: ألزق عليه الريش، وأعطى... الشباب: مصدر سابٌّ: شاتم ـ والمعنى: أمسكت بعطائه ذمّ الناس.

كَثُرَ عَثَاؤُها، وأَجْنَاؤُها[1] أَبْنَاؤُها. فلا ماؤها مَشْرُوعٌ، ولا شَارِعُها مَتْبُوعٌ. ولا نَجْمُها يُرْصَدُ، ولا رَبُّها يُقْصَدُ. فالبيتُ خالٍ مِن صَفَدٍ[2]، والبابُ عارٍ مِن حَفَدٍ[3]. والحَشَا حَشْوُهَا الطَّوى، والأَضالِعُ طَيُّها الحَوَى[4]. غَابَ المُسَاعِدُ، وَبانَ السَّاعِدُ. وَقَلَّ المُوَافِقُ، وغَلَبَ المُنَافِقُ. فلا بَابٌ يَرْفَعُ نائِبَةً، ولا ثَنِيَّةٌ تَثْنِي الشَّرَى ثائِبَةً[5].

قال الراوي: فما كان إلاَّ كَعَبْقَةِ طَائِرٍ، ولفتةِ حائِرٍ[6]. حتَّى سَمِعْتُ صَوْتًا رَخِيمًا، يَرُوقُ فَزَعًا وَخِيمًا[7]. فَتَلَفَّتُّ فإذا بفَتاةٍ تَسْتَوْقِفُ البَصَرَ، وتُعِيدُ ذا اللُّسَنِ حَصِرًا[8]. وهي تَقُولُ: أَحْشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ[9]، ونَحْنُ لا نَمْلِكُ بِتَّ لَيْلَةٍ[10]؟ أَغِيرَةً وجُبْنًا، وقِلَّةً وغَبْنًا[11]؟ أَتَرومُ أن يَفْرَقَ ما أَلِفْتُ[12]؟ أَمَا تَعْلَمُ حالَ مَنْ خَلَفْتُ[13]؟ أَمَا الجَوَى زَادُهُم، والفَقْرُ رِداؤُهُم[14]، والأَسَى أنيسُهم، والسَّهَرُ جَلِيسُهُمْ، والطَّوَى سَمِيرُهُمْ، والظَّمَأُ طَيْرُهُمْ[15]؟ فلا يَسْتَأْجِزُ[16] بانْصِرافٍ، ولا يُمَتِّعُهُم بِعَيْشٍ صافٍ[17]. ثُمَّ

---

(١) مفردها الحاني: مرتكب الذنب. وكَثُرَ: غلب في الكثرة.

(٢) الصَّفَد: العطاء

(٣) الحَفَد: الخدم ـ والكلام كناية عن الفقر وسوء الحال وانحطاط المنزلة.

(٤) الطوى: الجوع. والحوى: حلوّ الجوف من الطعام، والفضاء بين الشيئين.

(٥) الثَّنِيَّة: ما يَكُفّ ويثني. الشرى: سير الليل (المشقّة). ثاب: عاد.

(٦) غَبَّ الماءَ: شربه أو كرعه بلا تنفّس. والكلام كناية عن السرعة.

(٧) راق: صفا. أي الفزع ظاهر في الصوت صافيا. والوخيم: الطبيعة والسجيّة.

(٨) اللُّسَن: الفصاحة. والحَصِر: من حَصَرَ: عَيِيَ في المنطق. وفي م: حَصَرٍ.

(٩) مثلٌ يُضْرَب لمَن يجمع خصلتين مكروهتين. والحَشَف: أَرْدَأُ التمر أو اليابس الفاسد من التمر.

(١٠) البِتّ والبِتَّة: القوت. يقال «له بِتّ لبنة» أي قوت.

(١١) الغَبْن: ضعف الرأي.

(١٢) فَرَقَ: فَصَلَ. أي التفريط بما تملك.

(١٣) خَلَفَ: ترك خَلْفًا ـ والمقصود أولادها.

(١٤) م: رُدَاذُهُم. ولا معنى لها هنا. والرِّدَاد والرِّداد: الاسم من رَدَّه بمعنى صَرَفَه. ولا يتناسب هذا المعنى مع السياق.

(١٥) أي لا يفارقهم. وفي م: طِيرهم، بكسر الطاء.

(١٦) إستأجز: إستكان وطأطأ رأسه من رجع.

(١٧) أي لا هو يفارق ولا هو يفيد أولاده.

إسْتَعْبَرَتْ[1]، لَمَّا عَبَّرَتْ، فأَنْشَدَتْ: (من السريع)

خَلْفِي زُغَالِيلٌ بِلاَ مِيرَةٍ ... يا ذَا النَّدَى أَلا يُمَصُّ النَّوَى[2]

وَأَنْتَ مَنْ إِنْ رامَ بَذْلَ النَّدَى ... يَسْلُبُه العَافُونَ ما قَدْ حَوَى[3]

مَا بَالُ حَظِّي رَوْضُهُ ذابِلٌ ... وَنَجْمُهُ دُونَ الْبَرايا خَوَى[4]

إِنْ كانَ قَدْ قَصَّرَ في حَالَةٍ ... أو لَفْظَةٍ رَمَّدَ لَمَّا شَوَى[5]

فَدَعْهُ يَمْضِي طَالِبًا نَائِلاً ... فَقَدْ دَهَانَا في ثَرَاهُ الثَّرى[6]

قال الراوي: فَرَقَّ لَهُمَا الأَمِيرُ، وَأَخَذَ فيما يَرْفُو بِهِ حالَهُمَا وَيَمِيرُ[7]. فَمُذْ بَزَغَتْ شَمْسُ إِقْبالِهِ، طَارَحَتْهُ في أَقْبَالِهِ[8]. فَأَخَذَ بِيَدِ ظِلِّيهِ[9]، وضَرَبَ صَفْحًا عَنْ أَذِلَّتِهِ. وأَنْشَدَ: (من مجزوء الرجز)

لَوْلاَ حُضُورُ ظِلَّتِي ... مَا حُلَّ لِي عَقْدُ نَدَى

ولا رَحَلْتُ ظَافِرًا ... بِحَادِثٍ قَدِ اعْتَدَى

وَطَالَ في قُرْبِ الجَدَا ... وما حَوَتْ كَفِّي المَدَى[10]

خُذْ مَا تَرى اليَوْمَ وَدَعْ ... أَمْرًا وَلَوْ عَزَّ غَدَا

فالوقتُ كالسَّيْفِ فَصَلْ ... مِنْ كُلِّ شَيءٍ ما بَدَا

وصَيِّرِ الأَرْضَ ذَرًى ... وكُلَّ صُقْعٍ يُنْتَدَى[11]

---

(١) نكَثَ.

(٢) الميرة: الطعام الذي يدَّخره الإنسان. والنَّوى: جمع نواة التمر. أيْ حتى هذه لا يجدونها.

(٣) العافُون: طالبو الفضل والرزق.

(٤) في م: ذابلاً (بالنصب). خوى النجم: مال إلى الغيوب

(٥) رمَّد الشيء: جعله في الرماد. ورمدت الناقة: أضرعت. والمثل كناية عن شدّة الكرم.

(٦) ثراه: غناه. والمقصود: الفقر ـ الثرى: التراب. فالزوجة تسخر من غنى زوجها الذي حطَّهم في الحضيض.

(٧) رفا: أصلح. مار يَمِيرُ وأمارَ عياله: أتاهم بالطعام والمونة.

(٨) الأقبال: مفردهما قُبُل وقُبُل. يقال «أقْبَل قُبْلَه» أي قصد قصده. فالمعنى هنا: سألته عن مغايبه فيما فعل.

(٩) الظِّلَّة: الظِّلال. وأراد زوجته التي هي في ظِلِّه أي في ذراه وكنفه.

(١٠) الجَدَا: العطيّة. المَدَى: الغاية.

(١١) م: صَيِّرْ ذَرًا. والذَّرَى: الملجأ. تقول «اتَّخذت الحائطَ ذَرًى لي» أي أويت إليه. والصُّقْع: الناحية. وانتدى منه: أصاب خيرًا، وانتدى القومُ: إجتمعوا في النادي.

ولا تَـــرِدْ مـــديـــنـــةً تَـلْـقَـى[1] بَـرْآهـا الـرَّدَى
قَـدْ سَـارَتِ الـبَـعْـثَـرَةُ بـي لِـسَـفَـرْطٍ ذُلٌّ يُـرْتَـدَى
هـذا حَـديـثـي و[هـانَ] مَـنْ أَسْـمَـعْـتُ، لَـوْ أَجْـدَى النَّـدَا[2]

ثُمَّ سَارَ حَثًّا، يَغْبِطُهُ مَنْ كانَ يُزْنَى[3].

(١) م: تلقَ.
(٢) النَّدا: مخفَّفة من النَّداء. وأجدى: نفع. هان: لان وسهل. أي لو نفع الكلام لَلانَ مَن سمعه لحالي.
(٣) أي سار سيرًا حثيثًا: سريعًا. ومَن كان يُزنى لحالهم: لعلّه قصد أولاده.